حبّ المدينة المنورة في الشعر السعودي

الدكتور عبد الوحيد شيخ
الأستاذ المساعد، قسم اللغة العربية وآدابها،
الجامعة الإسلامية للعلوم والتكنولوجيا أونتي بورة

حب الوطن غريزة جبلية في الإنسان، وقد جاء في حديث ضعيف أن "حب الوطن من الإيمان"(١)، وهذا الأثر لا يصح عند المحدثين سنداً إلا أنه صحيح المعنى، فبالرجوع إلى تاريخ الإسلام يتبين لنا أن النبي صلى الله عليه وسلم لما أكره على الهجرة إلى المدينة المنورة، وتجهّز للرحيل قال مخاطبا لمكة المكرمة:" إنك لخير أرض الله وأحب أرض الله إليّ والله لو لا أني أخرجت منك ما خرجت" (٢). وهذا يدلّ على أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب مكة المكرمة، فلما هاجر إلى المدينة نجده يبتهل إلى الله تعالى ويدعوه بأن يحبّب إليه المدينة كما حبّب إليه مكة أو أشدّ(٣).

فصارت المدينة النبوية من أحب بلاد الله إليه حتى إنه كان إذا رجع من سفر أو غزوة، وأقبل على المدينة ورآها من بعد أسرع في سيره نحوها من شدة محبته لها وحنينه إليها، فقد جاء في حديث أنس بن مالك رضي الله عنه "أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا قدم من سفر فنظر إلى جدران المدينة أوضع راحلته، وإن كان على دابة حرّكها من حبها."(٤)

فإذا كان هذا حال النبي صلى الله عليه وسلم فلا غرابة أن يحنّ الإنسان إلى موطنه الذي ولد فيه وعاش فوق أرضه وتحت سمائه وتنفس هواه واستأنس بأهله فإن كان الشاعر الجاهلي يشتاق إلى وطنه ويتباكى على أطلاله على فراق أهله وهي أرض صحراء لا خضرة فيها ولا ماء ولا أمن فيها ولا استقرار , فكيف بمن ولد ونشأ في بلد فيه مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم، وفيه الحرمان الشريفان وفيه بيت الله الحرام وفيه من مشاعر الله منى وعرفات ومزدلفة، وفيه غار حراء الذي كان فيه ابتداء نزول القرآن، وفيه غار ثور حيث أقام فيه النبي صلى الله عليه وسلم بضعة أيام مع صاحبه أبي بكر الصديق رضي الله عنه، وكان الكفار يطلبونهما عندما خرج النبي صلى الله عليه وسلم مهاجرا إلى المدينة المنورة, إلى غير ذلك من الفضائل التي

اختصت بها المملكة العربية السعودية، وتميزت بها بين سائر البلدان، وقد تغنى بحب الحجاز جم غفير من الشعراء العرب والمسلمين من داخل المملكة وخارجها، والشاعر خارج المملكة يشتاق إليها بوصفها دولة إسلامية مقدسة ذات تاريخ إسلامي مجيد، والشاعر داخل المملكة يضيف إلي ما تقدم إحساس الغربة وشعور الألم بفراق الوطن. وهذا الصنف من الشعر يتسم بالصدق والواقعية لأن الشاعر فيه لا يهدف إلى شيء آخر سوى إظهار شعوره إلى وطنه في الغربة.

والشاعر عبيد مدني قد كثرت رحلاته خارج المملكة يقول في قصيدة بعنوان "نيل الأماني"

هذه طيبة وهذه رباها فاحمد الله إذ بلغت حماها

فبدأ القصيدة بذكر اسم من أسماء المدينة المنورة وهو "طيبة".

وأحيانا يقارن الشاعر بين المدينة التي سافر إليها وبين مدينة الرسول صلى الله عليه وسلم كما صنع أثناء إقامته بلبنان حيث نظم قصيدة وذكر فيها أن المحب إذا فارق حبيبه يمكن أن يعالجه بالصبر إلا أن يكون الفراق للمدينة المنورة فإنه لا ينفعه الصبر.

كل شوق يطوله الصبر إلا شوق حب المدينة المتفاني

وقد أعطى الشاعر عبيد مدني شعر الحنين بعدا دينيا جديدا أدخله ضمن الشعر الإسلامي لأن شعره يحمل معاني دينية مستنبطة بمجموعة من الأحاديث التي وردت في ذكر فضلها فهو يقول:

في هواها احتملت كل عناء من حسود وفكرة من جنان (٥)

وهذا المعنى أخده من قوله صلى الله عليه وسلم:" من صبر بالمدينة على لأوائها وشدتها كنت له شفيعا أو شهيدا يوم القيامة" (٦). ويقول الشاعر:

أو لم تسمعوا المكاره حفت وأحاطت وأحدقت بالجنان (٧)

واستلهم هذا المعنى من قوله عليه الصلاة والسلام:" حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات" (٨). فالشاعر ينتظر الأجر والثواب في حنينه إلى المدينة

وصبره على شدائدها.

وكذلك الشاعر محمد الفهد العيسى يزخر شعره بالحنين الشجي لمرابع الديار ومغاني الأوطان وعهود وذكريات الأصحاب والإخوان في مواسم البهجة والسرور فإنه مكث أزمنة عديدة في خارج المملكة العربية السعودية لأنه عمل سفيرا لها في عدد من الدول منها قطر والكويت والأردن وسلطنة عمان وغيرها.

يقول الشاعر في قصيدة "صبا نجد":

ألا يا صبا نجد فديتك يا نجدي متى كان عهدك بالأحباب في نجد

ويقول فيها:

أ يذكرني الخلان في الوسم عند ما تلوح بروق المزن...أم نسوا عهدي

سقى الله أرضا كنت بين رياضها أريق كؤوس البوح وجدا على الوجد

ويقول أيضا:

ألا يا صبا ما الطيب ما العرف بعدها ما الزهر ما القيصوم والعبق للورد

والشاعر أحمد صالح الصالح المشهور بـ "مسافر" يعتبر من طليعة الشعراء الشباب وأحد المجددين في الشعر السعودي يقول في قصيدة "حديث الغربة" حيث كان الشاعر في سفر ولجّ به الحنين إلى الوطن والأسرة فنظم هذه القصيدة التي يقول فيها:

رفيقة العمر... أمي من يخبرني عن حالها...كم إليها تسرع الفكر

ثم يذكر ذكرياته في المدارس وأيامه ولعبه مع أصدقائه وإخوانه ويذكر ابنته وشوقه لرؤيتها وأنه تستحضر كلامها دائما ثم يقول:

أكاد أسبق أيامي وأسألها متى اللقاء ؟ فقلبي كاد ينفطر

فأنتم ظل قلبي .. نبض أوردتي وفيكم العمر فينان ومزدهر (٩)

وقد لقي الشاعر حسن القرشي معاناة الغربة والاكتئاب فيرجع إلى إحضان الوحدة يشكو حاله يقول:

اتركيني لوحدتي واغترابي لعذابي إني ألفت عذابي

اتركيني ولا تبالي بدمعي إن فيض الدموع أصفى شرابي
اتركيني ولا تقولي "كئيب" خير زادي توجعي واكتئابي

والشاعر زاهر الألمعي كان في أيام دراسته بعيدا عن مسقط رأسه، وفي يوم العيد أحس بالغربة لبعده عن أهله وذويه، فقال هذه الأبيات التي تمثل حنينه إلى أهله وبلده وإحساسه بالغربة والوحدة:

يا عيد بلغ أسرتي وبلادي أزكى تحياتي وشوق فؤادي
وانقل لهم يا عيد وصف مشاعري وابن لهم عن لوعتي ووادي
أنا في الرياض وحال دون أحبتي شرف من الواحات والأطواد
والقلب ملتاح بحارق لوعة والعيد عيد الأنس والإسعاد
لكن أنسي أن أكون ببلدة لحقت بها الأعياد بالأعياد (١٠)

والشاعر عثمان بن سيار المحارب قد تغنى بذكريات بلده عدة قصائد يقول في قصيدة" أعيدي الربيع".

هل الشوق إلا فراق الحبيب ولو عاد بعد مرور السنين
وقد عدت فاحتضني أوبتي وصبي على مفرقي والجبين
حنانك إني إليك أحن للقياك في لهفة العاشقين
فيا خير أم لها أنتمي ومن ثديها أرضعتني الحنين
وعيني بمغناك استلهم القريض فأشجي به النازحين

ويحب الشاعر أن يدفن بعد موته في أرضه التي ولد فيها.

أحن لأول أرض لمست وأبغي بها – في غد- مقبري

ويطلب الشاعر من وطنه أن يضمه إليه فهو يشتهيه ويخشى أن لا يجيبه الوطن لسؤاله فتضيع آماله وأحلامه يقول في قصيدة "خذني إليك".

خذني إليك فأنت يا وطن الربيع
أحنى علي من الجميع(١١)

وقد ورد الترغيب في السنة في الإقامة في المدينة وأنها خير وأفضل من بقية

الأقطار والمدن في العالم. فقال عليه الصلاة والسلام: (والمدينة خير لهم لو كانوا يعلمون)(١٢).

الحواشي:

(١) ذكره الصغاني في الموضوعات (٥٣)، وقال ملا علي قاري في الأسرار المرفوعة (١٨٩): قيل لا أصل له أو بأصله موضوع. وحكم عليه الألباني بالوضع في السلسلة الضعيفة (٣٦) وقال ابن عثيمين في شرح رياض الصالحين (٣٣٠/٥): غير صحيح وقال في شرح النزهة (٥٥): مشهور لا أصل له.

(٢) سنن ابن ماجه، ٢/١٠٣٧ برقم ٣١٠٨

(٣) فتح الباري شرح صحيح البخاري ٤/٩٩

(٤) المصدر السابق: كتاب فضائل المدينة، حديث رقم ١٨٨٦

(٥) الشاعر المؤرخ عبيد مدني حياته وشعره للمطوع، ص ١٦٤ -١٦٦

(٦) الإمام أحمد: المسند ٣/٦٩، دار الكتب العلمية، بيروت

(٧) الشاعر المؤرخ عبيد مدني حياته وشعره للمطوع، ص ١٦٦

(٨) الإمام مسلم في صحيحه (بشرح النووي)١٧/١٦٥

(٩) شعراء من أرض القصيم، عبد الرحمن بن عوض الحربي، ص ١٨ و١٤٧ و١٤٥/٢

(١٠) شعراء من الجزيرة العربية، عبد الله بن سالم الحميد، شركة مطابع نجد التجارية، ط١٤١٣/١هـ-١٩٩٢م (٢/١١٤).

(١١) ديوان: بين فجر وغسق ص١٨-١٩ و٢٤ و٧٢-٧٣

(١٢) صحيح البخاري (١٨٧٥)

* * *